

تفسير البحر المحيط

@ 144 الغيبة ، والمراد □ تعالى . .

2 ({ إِنَّ زَمْزَمًا مَثَلُ الْوَادِيَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنَّ نَزْلَ نَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا
أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَّتْ وَطَنَّتْ أَهْلُهَا أَنْزَلَهُمْ
قَادِرُونَ عَلَىٰ هَآءَ مَا نَزَّلْنَاهَا وَلَئِن لَّمْ يَؤْمُرُوا بِهَا لَأَنزَلْنَاهَا
حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِاللَّيْلِ مَسْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (2 .

{ إِنَّ زَمْزَمًا مَثَلُ الْوَادِيَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنَّ نَزْلَ نَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا
أَخَذَتِ { مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما قال : { الْحَقُّ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّ زَمْزَمًا بَغِيضٌ كُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَّتَاعَ الْوَادِيَةِ الدُّنْيَا }
ضرب مثلاً عجيباً غريباً للحياة الدنيا تذكر من يبغى فيها على سرعة زوالها وانقضائها ،
وأنها بحال ما تعز وتسر ، تضحل ويؤول أمرها إلى الفناء . وقال الزمخشري : هذا من
التشبيه المركب ، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات
الأرض في جفافه وذها به حطافاً بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرتها ورفيفه انتهى . وإنما
هنا ليست للحصر لا وضعاً ولا استعماً لا ، لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا ،
والمثل هنا يحتمل أن يراد به الصفة ، وأن يراد به القول السائر المشبه به حال الثاني
بالأول . والظاهر تشبيه صفة الحياة الدنيا بماء فيما يكون به ، ويترتب عليه من الانتفاع
ثم الانقطاع . وقيل : شبهت الحياة الدنيا بالنبات على تلك الأوصاف ، فيكون التقدير :
كنبات ماء ، فحذف المضاف . وقيل : شبهت الحياة بحياة مقدره على هذه الأوصاف ، فيكون
التقدير : كحياة قوم بماء أنزلناه من السماء . قيل : ويقوي هذا قوله : وطن أهلها أنهم
قادرون عليها . والسماء إما أن يراد من السحاب ، وإما أن يراد من جهة السماء ، والظاهر
أن النبات اختلط بالماء . ومعنى الاختلاط : تشبته به ، وتلقفه إياه ، وقبوله له ، لأنه
يجري له مجرى الغذاء ، فتكون الباء للمصاحبة . وكل مخلطين يصح في كل منهما أن يقال :
اختلط بمصاحبه ، فلذلك فسره بعضهم بقوله : خالطه الماء وداخله ، فغذى كل جزء منه .
وقال الكرمانى : فاختلط به اختلاط مجاورة ، لأنَّ الاختلاط تداخل الأشياء بعضها في بعض انتهى

. ولا يمنع اختلاط النبات بالماء على سبيل التداخل ، فلا تقول : إنه اختلاط مجاورة . وقيل : اختلط اختلف وتنوع بالماء ، وينبو لفظ اختلط عن هذا التفسير . وقيل : معنى اختلط تركب . وقيل : امتد وطال . وقال الزمخشري : فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً . وقال ابن عطية : وصلت فرقة النبات بقوله فاختلف أي : اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماء انتهى . وعلى هذه الأقوال الباء في بماء للسببية ، وأبعد من ذهب إلى أن الفاعل في قوله : فاختلف ، هو ضمير يعود على الماء أي : فاختلف الماء بالأرض . ويقف هذا المذهب على قوله : فاختلف ، ويستأنف به نبات على الابتداء ، والخبر المقدم . قال ابن عطية : يحتمل على هذا أن يعود الضمير في به على الماء وعلى الاختلاط الذي تضمنه الفعل انتهى . والوقف على قوله : فاختلف ، لا يجوز وخاصة في القرآن لأنه تفكيك للكلام المتمل الصحيح المعنى ، الفصح اللفظ ، وذهاب إلى اللغز والتعقيد ، والمعنى الضعيف . ألا ترى أنه لو صرح بإطهار الاسم الذي الضمير في كناية عنه فليل بالاختلاط نبات الأرض ، أو بالماء نبات الأرض ، لم يكذب ينعد كلاماً من مبتدأ وخبر لضعف هذا الإسناد وقربه من عدم الإفادة ، ولولا أن ابن عطية ذكره وخرجه على ما ذكرناه عنه لم نذكره في كتابنا . ولما كان النبات ينقسم إلى مأكول وغيره ، بيّن أن المراد أحد القسمين بمن فقال : مما يأكل الناس ، كالحبوب والثمار والبقول والأنعام ، كالحشيش وسائر ما يرعى . قال الحوفي : من متعلقه باختلط . وقال أبو البقاء : مما